بسم الله الرحمن الرحيم

كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بالمنصورة

مجلة
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بالمنصورة

يشرف على تحريرها

الأستاذ الدكتور
جابر السيد مبارك
عميد الكلية

الأستاذ الدكتور
هلال عطاالله عثمان
وكيل الكلية

مجلة علمية محكمة

العدد الثامن عشر

الجزء الثاني

١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩م

النظم بين الفن والتاريخ

إعداد
د / هلال عطا الله عثمان محمد
وكيل كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بالمنصورة
« قسم البلاغة والنقد »

النظم بين الفن والتاريخ

ويشتمل البحث على الآتي :

المبحث الأول : نظرية النظم .

- معنى النظم لغة .
- الإعجاز والنظم .
- الجاحظ ومفهوم النظم .
- الحلقة المفقودة في سلسلة النظم .
- غموض فكرة النظم عند الرماني .
- أسس فكرة النظم عند الخطابي .
- الباقلاني بين الجاحظ والرماني .
- القاضي عبد الجبار ودوره في النظم .
- عبد القاهر الجرجاني رائد نظرية النظم .

المبحث الثاني : النظم في ميدان التطبيق .

- عند الزمخشري .
- النظم بعد الزمخشري .
- النظم عند السهيلي .

المبحث الأول
نظرية النظم

معنى النظم لغة :

يدور معنى النظم في اللغة حول : التأليف والتنسيق والترتيب ..... يظهر ذلك من تتبع معنى هذه المادة في معاجم اللغة .

فقد جاء في الجمهرة لابن دُريد :

« النَّظْمُ نَظْمُك الخَرَز وغيره. نَظَمَ يَنْظِمُ نَظْماً، ونِظَاماً، ونَظَّمَ تَنْظِيماً، والنِّظَامُ: كُلُّ شيءٍ مَنْظُوم ....، ويقال: انْتَظَمْتُ الصَّيْدَ إذا طَعَنْتُهُ، أَوْ رَمَيْتُهُ حتى تُنْفِذَهُ، ولا يقال: انتظمْتُهُ حتى تَجْمَع بَيْنَ رَمْيَتَيْن بِسَهْمٍ أو برمحٍ »(١).

وفي تهذيب اللغة للأزهري :

« النَّظْمُ نَظْمُك الخَرَزَ بعضَه إلى بَعْضٍ في نظامٍ واحد ، كذلك هو في كل شيءٍ حتى يُقَال : ليس لأمرٍ نظامٌ ، أي : لا تستقيم طريقته ..... وقد نظّمت السمكة فهي مُنَظَّم ، ونَظَمَتْ فهي ناظم ، وذلك حين يمتلئ من أصل أذنها إلى ذنبها بيضاً ، وكذلك الدجاجة تَنْظِمْ ....»(٢).

وفي (الصحاح) للجوهري :

« نَظَّمْت اللؤلؤ : أي جمعته في السِّلك ، والتنظيم مثله ، ومنه نَظَمْتُ الشِّعْر ، ونَظَّمْتُهُ، والنِّظَام : الخَيْطُ الذي يُنْظَمُ فيه اللؤْلؤُ ، ونظمٌ من لؤلؤ ، وهو في الأصل مصدر ، والانتظام : الاتساق ... وأَنْظَمَتْ الدجاجةُ ، إذا صار في بطنها بيض.....»(٣).

---

(١) الجمهرة لابن دريد ١٢٥/٣ دار صادر – بيروت – الطبعة الأولى ١٣٤٥هـ .

(٢) تهذيب اللغة ٣٩١/١٤ تحقيق : يعقوب عبد النبي ، مراجعة : محمد النجار (الدار المصرية للتأليف والترجمة : القاهرة ، الطبعة والتاريخ : من دون) .

(٣) الصحاح للجوهري ٢٠٤١/٥ دار العلم للملايين – الطبعة الثانية ١٩٧٩م .

وفي (أساس البلاغة) للزمخشري :

« نَظَّمْتُ الدّر ونظّمته ، ودُرٌّ منظوم ، ومنظم ، وقد انتظم ، وتناظم ، وله نظمٌ منه، ... ومن المجاز : نَظْمُ الكلام ، وهذا نَظْمٌ حسنٌ ، وانتظم كلامه وأمره ، وليس لأمره نِظَام : إذا لم تستقم طريقته ، وتقول : هذه أمور عظام لو كان لها نِظام ، ورَمَى صيداً فانتَظَمَهُ بسهم ، وطعنه فانتظم ساقيه ، أو جنبيه » (١).

وفي لسان العرب لابن منظور :

« النظمُ التأليف ، نظمه ينظمه نَظْماً ونَظَاماً ، ونظمه فانتظم ، وتنظّم ، ونظّمتُ اللؤلؤ، أي جمعتُه في السِّلك ، والتنظيم مثله ، ومنه نظّمتُ الشّعْرَ ونَظَّمْتُهُ ، وكل شيء قَرَنْته بآخر، وضممت بعضه إلى بعض فقد نَظَّمْتَهُ ، والنَّظْمَ : المنظُوم وصفٌ بالمصدر ، والنظمُ : ما نظمته من لؤلؤ وخرزٍ وغيرهما ، والنِّظام : ما نَظَّمْتَ فيه الشيء من خيطٍ وغيره ، والنِّظامُ : الخيط الذي ينْظَمُ به اللؤلؤ .... والانتظام :الاتساق، وتَنَاظَمَت الصخُور : تلاصقت.....»(٢).

وفي المصباح المنير للفيومي :

« نظمتُ الخَرَزَ نظماً من باب ضَرَبَ : جعلته في سلك ، وهو النِّظام بالكسر ، ونَظَّمتُ الأمْرَ فانتظم : أقمته فاستقام ، وهو على نظام واحد أي : نَهْجٍ غير مختلف ..... » (٣).

---

(١) أساس البلاغة للزمخشري ٤٦٣ مطبعة أولاد أورفاند – القاهرة – الطبعة الأولى ١٩٥٣م .

(٢) لسان العرب لابن منظور ٤٤٦٨/٧ تحقيق : عبد الله الكبير ، ومحمد حسب الله ، وهاشم الشاذلي (دار المعارف – مصر) .

(٣) المصباح المنير للفيومي ٢٣٤ مكتبة لبنان – بيروت – الطبعة من دون ١٩٨٧م .

وفي القاموس المحيط للفيروز أبادي:

« النّظْمُ التأليف ، وضمُّ شيء إلى شيءٍ آخر ، والمنظوم ، والجماعةُ من الجراد ، وثلاثة كواكب من الجوزاء ... ونَظَمَ اللؤلؤ ينظمُهُ نَظْماً ، ونِظَاماً ، ونظّمَه : ألفه ، وجَمَعَهُ في سِلْكٍ فانتظم ، وتَنَظَّم .

وانْتَظَمَهُ بالرمح : اختله ، والنِّظام : كل خَيْطٍ يُنْظَم به لؤلؤ ونحوه ، ونِظَاماً السّمكة والضَّب ، وإنظاماهما – بكسرهما – وانْظومَتَاهُما – بالضم – خيطان مَنْظُومان بيضاً من الذّنب إلى الأذن ، وقد نظَمَتْ ، ونظّمَتْ ، وأنْظمتْ ، وهي ناظِم ومُنْظِمٌ ، والأنْظَامُ ، نَفْسُ البيضِ المُنْتَظِم ، ومن الرّمْلِ : ما تَعَقَّدَ منه ..... »[١] .

وفي (المعجم الوسيط):

« (نَظَمَ) الأشياء نَظْماً : ألّفَها ، وضمَّ بعضها إلى بعض ، واللؤلؤ ونحوه : جعله في سلك ونحوه ، ويقال : نظم الخَوَّاصُ الخُوصَ : ضَفَرَهُ ... (انتظم) الشيئُ : تألّفَ واتّسق ، يُقالُ : نظمه فانتظم ، ويقال : انتظم أمره:استقام،والأشياء:جمعها ، وضمّ بعضها إلى بعض ..... (تناظمت) الأشياء : تَضَامَتْ ، وتلاصقت .....

(النِّظام) الخيطُ يُنْظَمُ فيه اللؤلُؤْ وغيره ، والترتيب والاتساقُ، ويقال: نِظامُ الأمر : قوامه ، وعماده ، والطريقة ، يقال : ما زال على نظام واحد ..... »[٢].

---

(١) القاموس المحيط للفيروز أبادي ١٥٠٠ تحقيق مكتبة التراث في مؤسسة الرسالة – بيروت – الطبعة الأولى ١٩٨٦م .

(٢) المعجم الوسيط ٩٤١/١ أشرف على طبعه / عبد السلام هارون – المكتبة العلمية – طهران .

وبذلك يظهر لنا أن المعنى اللغوي المشترك لمادة(نَظَمَ) يدور حول التناسب ، والتناسق ، والائتلاف ، وهو : ضم الشيء إلى الشيء وتنسيقه على نسق واحد ، كما تُضَمُّ حبّات اللؤلؤ بعضها إلى بعض في سلك ، ونحوه ، وهو أساس المعنى الذي بُنِيَت عليه نظرية النظم فيما بعد عند عبد القاهر الجرجاني ، فكما أن نظم حبات اللؤلؤ في الخيط يستوجب دقة وإحكاماً في الصنعة ؛ ليبدوا العقد متناسب الأجزاء ، كذلك نظم المفردات في سلك الجمل والتراكيب ، يتطلب دقة في مراعاة مجيئه وفق ترتيب المعنى الذي تشكّل في النفس بشكل خاص ونظام خاص، ولكن عبد القاهر زاد أن ربطه بعلم النحو (١).

الإعجاز والنظم :

كان لدراسات المتكلمين من الأشاعرة ، والمعتزلة ، وغيرهم في وجوه إعجاز القرآن دور كبير في بروز فكرة النظم كوجه من وجوه الإعجاز (٢).

وقد ظهرت أول ما ظهرت في بيئة المعتزلة : أبرز طوائف المتكلمين ، وأخذت تنمو شيئاً فشيئاً حتى دخلت بحوث البلاغيين ، وصارت نظرية لها معالمها ، وأصولها الواضحة (٣).

---

(١) صرح بذلك في مواضع عديدة من دلائل الإعجاز ٥١، ١٢١ ، ١١٨ ، ١٢٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٦ ، ٣٤١ ، ٣٥٩ ، ٣٦١ ، ٣٧٠ ، ٣٧٥ ، ٣٩٨ ، ٤٠٠ ، ٤١٠ ، ٤٢٥ ، ٤٥٩ ، ٤٧٣ ، وفي كل هذه المواضع قصد النظم الذي حقيقته توخي معاني النحو .
ينظر ذلك في دلائل الإعجاز تحقيق : محمد رضوان الدايه ، الدكتور : فايز الدايه ، مكتبة : سعد الدين – دمشق ، الطبعة الثانية ١٩٨٧م .

(٢) فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم د . فتحي أحمد عامر :٢٧ منشأة المعارف – الإسكندرية – الطبعة من دون ، ١٩٩١م .

(٣) ينظر : التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة حتى نهايو القرن السادس الهجري – د . وليد قصاب ٣١٤، ٣٣٠،دار الثقافة الدوحة .

الجاحظ ومفهوم النظم :

وتبدأ بذور النظم عند المعتزلة في كتابات الجاحظ المتوفي سنة ٢٥٥هـ ، حين أعلن في أكثر من موضع بأن إعجاز القرآن إنما هو نظمه وتأليفه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد (١)، وذلك رداً على أستاذه النظّام الذي أنكر أن يكون إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه ، وذهب إلى أن بيان القرآن بياناً عربياً كان باستطاعة العرب أن يأتوا بمثله لولا أن الله صرفهم عنه (٢).

وكان لهذه المقولة ردة فعل قوية لدى معاصريه ، كما أنها وجّهت الأنظار إلى نظم القرآن المعجز ، فراح الجاحظ يتتبع نظم القرآن ، ويدرس إعجازه ، وقد وضع في ذلك كتاباً سماه (نظم القرآن) استفاد منه الزمخشري في دراسته لبلاغة القرآن وإعجازه ولكنه مفقود ، وهذا قد حرمنا من معرفة السبيل التي سلكها الجاحظ في شرح فكرته في النظم التي عَنْوَن بها كتابه ، ولكن تلك الإشارات المبثوثة بين ثنايا مؤلفاته الأخرى تدل على أن فكرة النظم عنده : فكرة لفظية تعتمد على حسن الصياغة ، وكمال الترتيب ، ودقة التأليف بأن يراعى في اللفظة المفردة شروط الفصاحة كحسن الانتقاء ، ودقة الاختيار ، بحيث تكون خفيفة على اللسان في النطق ، سهلة المخارج ، رشيقة الوقع في الأذن ، بين حروفها تلاؤم وانسجام ، بعيدة عن الغرابة، والوحشية ، والتعقيد ، وهي ملائمة للمعنى ،

---

(١) ينظر : الحيوان ، للجاحظ : ٩٠/٤ تحقيق وشرح : عبد السلام هارون (دار الجيل – دار الفكر : بيروت – الطبعة من دون ١٩٨٨م) .

(٢) ينظر : مقالات الإسلاميين ، الأولى ، لأبي الحسن الأشعري ٧١/١ تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد (مكتبة النهضة) القاهرة .

مشاكل للغرض الذي وردت فيه ؛ تطبيقاً لقاعدة مراعاة الكلام لمقتضى الحال (١).

وهي بعد ذلك – من حيث التركيب والتأليف في سياق الكلام – تعتمد على مراعاة التجانس ، والانسجام بين الألفاظ المفردة ، حينما تسلك إلى جانب بعضها بعضاً ، فلا يبدو هنالك تنافر بين أجزاء الكلام ، بل يبدو متلاحماً آخذاً بعضه برقاب بعض حتى أفرغ إفراغاً واحداً ، يبدوا متلاحماً آخذاً بعضه برقاب بعض حتى كأنما أفرغ إفراغاً واحداً ، وسبك سبكاً واحداً .... تلك هي فكرة النظم عند الجاحظ (٢).

والحق أن تصور الجاحظ للنظم بهذا الشكل انحل إلى فكرة الفصاحة التي تحدث عنها المتأخرون ، ولاسيما ابن سنان الخفاجي المتوفى سنة٤٦٦هـ في كتابه (سر الفصاحة) الذي جعل الفصاحة وصفاً مقصوراً على الألفاظ ، والبلاغة وصفاً للألفاظ مع المعاني ، ثم قسم شروط الفصاحة إلى قسمين :

فالأول : يوجد في اللفظة الواحدة على انفرادها من غير أن ينضم إليها شيء من الألفاظ تؤلف معه ، والقسم الثاني : يوجد في الألفاظ المنظومة بعضها مع بعض ، ثم مضى يتحدث عن كل من القسمين بما يزيد كثيراً عما قاله الجاحظ (٣).

---

(١) ينظر : البيان والتبيين للجاحظ :٦٧/١ ، تحقيق وشرح : عبد السلام هارون (دار الجيل ، دار الفكر – بيروت) .

(٢) المصدر السابق ٦٧/١ ، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين د . فوزي عبد ربه : ٢١٧ (دار الثقافة – القاهرة ١٩٨٣م) .

(٣) ينظر ذلك في : سر الفصاحة ، ابن سنان الخفاجي :٥٩- ٦٠ دار الكتب العلمية : بيروت – الطبعة الأولى ١٩٨٢م .

ويدخل في مفهوم النظم عند الجاحظ : ملاحظة أسلوب القرآن في التعبير ، وطريقته في الأداء ، ومخالفته لجميع طرائق القول المعروفة عند العرب ، فهو يفرق بين نظم القرآن وتأليفه ، ونظم سائر الكلام ، وتأليفه ، ويبين أن إدراك الفرق بينهما لا يتأتى إلا لمن له دراية ، ومعرفة بأساليب العرب ، وتصرفها في القول ، وكلما كان أعرف ببلاغة الكلام ، كان أقدر على معرفة إعجاز القرآن ، والإحساس بروعته ، وما فيه من تفوق على أساليب القول الأخرى ، يقول :

« وفرقٌ ما بين نظم القرآن ، وتأليفه ، ونظم سائر الكلام ، وتأليفه ، فليس يعرف فروق النظم ، واختلاف البحث ، والنثر إلا من عرف القصيد من الرجز ، والمخمس من الأسجاع ، والمزدوج من المنثور ، والخطب من الرسائل ..... » (١).

الحلقة المفقودة في سلسلة النظم :

وجاء الواسطي المعتزلي المتوفى سنة٣٠٦هـ بعد الجاحظ ، وألف كتاباً يرجع فيه إعجاز القرآن إلى نظمه وتأليفه ، وعنوانه : (إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه) مما يدل على أن مفهوم النظم لم يكن غريباً على البيئة الاعتزالية(٢) كما يدل على أن كتاب الجاحظ قد لقى اهتماماً كبيراً ممن جاءوا بعده .

ولعل في الكتاب ما يتطوّر بفكرة النظم التي هي أهم وجوه الإعجاز على الإطلاق ، ولكن مع الأسف الشديد قد سقط من يد الزمان (٣).

---

(١) الحيوان :١٥٤ ، البيان التبيين ٣٨٣/١ ، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين د . فوزي السيد عبد ربه ٣١٧ .

(٢) ينظر : التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة ، د . وليد القصاب :٣٢٦ .

(٣) ينظر : فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم د. فتحي أحمد عامر :٥٤ .

غموض فكرة النظم عند الرماني :

وممن كتبوا في إعجاز القرآن بعد الجاحظ : أبو الحسن علي بن عيسى الرماني ، المتوفى٣٨٤هـ فقد ألف رسالته (النكت في إعجاز القرآن) .

وأشار إلى النظم في حديثه عن بلاغة القرآن التي جعلها وجهاً من وجوه إعجازه السبعة ، ولكن عبارته فيها شيء من الغموض ، ولا تكاد تضيف شيئاً لما ذهب إليه الجاحظ .

لقد ردّ الرماني إعجاز القرآن إلى سبع جهات ، منها : « البلاغة التي هي في أعلى طبقة من طبقات البلاغة » ، ثم قسم البلاغة إلى عشرة أقسام : الإيجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، والتلاؤم ، والفواصل ، والتجانس ، والتصريف ، والتضمين ، والمبالغة ، وحسن البيان » (١).

وقد جاء في حديثه عن التشبيه قوله : « وتشبيه أعمال الكفار بالسراب من حسن التشبيه ، فكيف إذا تضمن مع ذلك حسن النظم ، وعذوبة اللفظ ، وكثرة الفائدة !! » (٢).

وجاء في حديثه عن حسن البيان : أن أعلى مراتب البيان « ما جمع أسباب الحسن في العبارة من تعديل النظم حتى يحسن في السمع ، ويسهل على اللسان ، وتتقبله النفس تقبل البرد، وحتى يأتي على مقدار الحاجة فيما

---

(١) ينظر : النكت في إعجاز القرآن للرماني :٧٥- ٧٦ . ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن تحقيق د. محمد خلف الله أحمد ،د . محمد زغلول سلام (دار المعارف – القاهرة ، الطبعة الرابعة) .

(٢) المصدر السابق :٨٢ ويشير إلى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ النور آية ٣٩ .

هو حقه من المرتبة ..... » [١].

وهو بذلك وإن كان تنبّه إلى أهمية التأليف والنظم في بلاغة القرآن إلى جانب الفنون الأخرى ، إلا أنه لم يشغل نفسه بتوضيح مراده من (حسن النظم) في العبارة الأولى ،و« تعديل النظم » في العبارة الثانية ، وإنما اعتنى عناية فائقة بالتمثيل لأقسام البلاغة من القرآن ، وتناولها تناولاً فنياً أسهب فيه لما أحسّها بذوقه ، ووجدانه ، ذاهباً إلى أن كل أقسام البلاغة التي عددها ، ومثل لها قد بلغت في نظم القرآن : غاية الحسن ، ونهاية الفصاحة ، والإعجاز ، لأنها بلاغة القرآن : البلاغة المعجزة[٢] .

أسس فكرة النظم عند الخطابي :

ويؤلف أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم المتوفى سنة ٣٨٨هـ رسالته في (بيان إعجاز القرآن) مقرراً أن إعجاز القرآن في نظمه ، لكنه يتميز عن سابقيه بأنه وضح شيئاً من المراد بالنظم من وجهة نظره ، ومن ثم بدأت تتضح أسس فكرة النظم عنده ، ذلك أنه بين أن سر عجز البشر عن الإتيان بكلام مثل القرآن يرجع لأمور منها : أن أفهامهم لا تدرك جميع معاني الأشياء المحمولة على الألفاظ ؛ ولعدم اكتمال معرفتهم لجميع وجوه النظوم التي بها يكون ائتلاف الألفاظ والمعاني فيتوصلون بذلك إلى أن يأتوا بكلام مثله ، لأن الكلام يقوم بهذه الأشياء الثلاثة « لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لها ناظم »[٣] .

---

(١) المصدر السابق : ١٠٧ .

(٢) النكت في إعجاز القرآن : ٧٦ – ١١٣ ، وينظر : أثر القرآن في تطور النقد العربي : ٢٤٩ – ٢٥٣.

(٣) بيان إعجاز القرآن للخطابي : ٢٦، ٢٧ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن .

ولا أظنه يريد بهذا الرباط إلا النظم ، لذلك يقول : « وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة ، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ، ولا أجزل ، ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً ، ، أشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه »(١). ثم يقول بعد أن بين أن هذه الفضائل الثلاث لا توجد مجوعة في نوع واحد من أنواع الكلام إلا في كلام العليم القدير : « فتفهم الآن ، واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً ، لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف ، مضمناً أصح المعاني .... من توحيد ، وتحليل ، وتحريم ..... ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور ، والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم ، وتتسق ، أمر تعجز عنه قوى البشر»(٢).

فليس النظم عنده مجرد صياغة لفظية ، كما كان عند الجاحظ ، إنما هو شيء يجمع بين الألفاظ والمعاني ، ويربط بينها . ويخطو بنا خطوة أوسع من سابقتها ؛ ليفصح عن قصده ، وذلك في رده على من ادّعى أن العرب غير عاجزين عن معارضة القرآن ؛ فيقول : « .... ولم نقتصر فيما اعتمدناه من البلاغة – لإعجاز القرآن على مفرد الألفاظ ، التي منها يتركب الكلام دون ما يتضمنه من ودائعه التي هي معانيه ، وملابسه التي هي نظوم تأليفه .....» (٣).ثم يقول: « وأما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة ، والحذق فيها أكثر ، لأنها لجام الألفاظ ، وزمام المعاني ، وبه تنتظم أجزاء الكلام ، ويلتئم بعضه ببعض ، وهي معاني النحو التي لا بد

---

(١) المصدر السابق : ٢٧ .

(٢) المصدر السابق : ٢٧ ، ٢٨ .

(٣) بيان إعجاز القرآن : ٣٦ .

من توخيها في ترتيب الألفاظ لتجيء وفقاً لترتيب المعاني في النفس ، وهو في المعنى الذي طالما ألح عليه عبد القاهر في الدلائل » [١]ولكن الخطابي وإن كان قد قصده ، وأحسّ بأهميته بعمق ، إلا أنه لم يصرح به ، ولم يحدد ماهيته تحديداً دقيقاً صريحاً .

ومع هذا فإنه كما يقول الدكتور زغلول قد وضع أمامنا صورة للنظم الذي يرى فيه سر الإعجاز ، وهو قريب من فهم عبد القاهر له في (الدلائل) [٢].

وهذا في نظري كافٍ في الرد على من ذهب إلى أن الخطابي لم يتعمق في مدلول الإعجاز من حيث النظم [٣].

الباقلاني بين الجاحظ والرماني :

ونلتقي بالقاضي الباقلاني المتوفى سنة٤٠٣هـ ، والذي عني بالبحث في وجوه الإعجاز في كتابه (إعجاز القرآن)يقول في الوجه الثالث من وجوه إعجازه : « والوجه الثالث : أنه بديع النظم عجيب التأليف متناهٍ في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه »[٤] .

وعلى الرغم من أن الباقلاني قد حط من كتاب الجاحظ في نظم القرآن ، إذ قال فيه: «وقد صنّف الجاحظ في نظم القرآن كتاباً لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله ، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى » [٥].

---

(١) الدلائل ٩٧ .

(٢) ينظر أثر القرآن في تطور النقد العربي د . زغلول سلام ٢٥٩.

(٣) ينظر : فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم د. فتحي أحمد عامر ٦٤ .

(٤) إعجاز القرآن للباقلاني : ٥٢ (عالم الكتب – بيروت – الطبعة الأولى) .

(٥) المصدر السابق :٢١ .

إلا أنه قد ذهب مذهبه في تفسير النظم وأن مرجع الإعجاز إلى نظمه، وأسلوبه العجيب المُباين لأساليب العرب في الكلام [١] وألحَّ على هذا الجانب إلحاحاً شديداً ؛ يقول : « فالذي يشتمل عليه بديع نظمه المتضمن للإعجاز وجوه ، منها : ما يرجع إلى الجملة ، وذلك أن نظام القرآن على تصرف وجوهه ، واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد » [٢].

أما في الشطر الثاني من نظريته فيتأثر بفكرة الرمّاني التي تقدّم ذكرها ، والتي ذهب فيها إلى أ القرآن يرتفع في أعلى طبقة من طبقات البلاغة [٣].

ثم راح الباقلاني يفسر نظريته تلك من عشرة وجوه ، مبيناً كيف جاء أسلوب القرآن على نمط فريد ، تطّرد فيه البلاغة اطراداً يشمل جميع آياته دون أي تفاوت ، بخلاف كلام البلغاء، والفصحاء الذي يتفاوت من موضوع إلى موضوع ، ويتباين من غرض إلى غرض ، وإذا أحسنوا في بعض الموضوعات لم يحسنوا في بعض ، ويقول بأن القرآن يخرج في بلاغة نظمه عن كلام الإنس والجن ، كما يتفوق على كلام البشر في إيجازه ، وإطنابه ، وصوره البيانية والتعبيرية ، ومن روعة تأليفه أن الكلمة منه إذا ذكرت في تضاعيف كلام تتألق بين جاراتها تألقاً ، وأن القرآن وضع حروفاً في مطالع بعض السور تبلغ عدتها أربعة عشر ، وهي بذلك نصف

---

(١) ينظر فكرة الجاحظ في النظم :٥٦ .

(٢) ينظر : إعجاز القرآن : ٥٣ .

(٣) ينظر : الإعجاز عند الرماني : ٦٠ .

حروف المعجم ، وكأنه يشير بذلك إلى أن كلامه منتظم من نفس الحروف التي يستخدمونها ، ومع ذلك عجزوا عجزاً تاماً عن معارضته » [١].وشيء آخر يضاف لبديع نظمه وتأليفه ، هو خلوه من الوحشي المستكره ، والغريب المستنكر ، والصنعة المتكلفة[٢] .....

وعلى الرغم من توسعه وإطنابه في شرح نظريته تلك ، إلا أنه لم يستطع تفسير الإعجاز في القرآن من حيث نظمه تفسيراً دقيقاً ، بل حتى في فكرة إعجاز القرآن ، فإنه كما قال الدكتور شوقي ضيف : « لم يزد في كتابه عن محاولة شرحه لما قاله الجاحظ من جمال النظم القرآني، وما قاله الرماني من أنه – دون غيره من بلاغة البلغاء – في المرتبة الرفيعة من البلاغة والبيان » [٣].

وهو الأمر الذي جعل الأستاذ عبد الكريم الخطيب يرى أن الباقلاني ليس عنده من جديد يُحدّثنا به عن إعجاز القرآن ، لأن قدرته لم تُسعفه أن يحمل شيئاً يعتد به من روائع القرآن وعجائبه [٤] ولا أوافق الأستاذ على رأيه : إذ يكفي الباقلاني أنه وجه الأنظار إلى البحث عن أسرار النظم القرآني بتلك الطريقة ، وبذلك العرض الشائق ، وبذلك الحس المرهف ، والبيان المتدفق الذي نجده عند عبد القاهر في دلائل الإعجاز ، وإن كان قد عجز عن أن يحدد لنا مفهومه للنظم ، أو يصور تلك الأسرار التي من

---

(١) ينظر : البلاغة تطور وتاريخ د . شوقي ضيف : ١٠٩ .

(٢) ينظر : إعجاز القرآن : ٥٣ – ٦٥ .

(٣) ينظر البلاغة تطور وتاريخ : ١١٤ ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : مصطفى صادق الرافعي ١٥٢- ١٥٤ .

(٤) ينظر :

شأنها لو وُضِّحتْ « توضيحاً دقيقاً أن تقف الناس على إعجازه » [١].

وهكذا ظلت فكرة النظم عنده غامضة مستورة خلف حجب كثيفة .

القاضي عبد الجبار ودوره في التطور بفكرة (النظم):

ويأتي القاضي عبد الجبار فيرى بادئ ذي بدء رأي أستاذه أبي هاشم الجبائي[٢] في فصاحة الكلام ، وأن مرجعها إلى جزالة اللفظ ، وَحُسْن المعنى ، وليست فصاحة الكلام لأن يكون له نظم مخصوص [٣].

لكنه سرعان ما يتنبه لما في رأي الجبائي من قصور لإهماله صورة الضم ، وطريقة التركيب في الكلام ، وهو العنصر الثالث الذي تحدث عنه الخطابي .

أى : ترتيب الألفاظ في رباط خلال السياق ، وإذا كان الخطابي لم يتحدث عن ماهية هذا الرباط الذي يجمع بين الألفاظ والمعاني ، ولم يشرح مفهوم النظام الذي يربط بينهما ، فإن القاضي عبد الجبار قد أماط اللّثام عنه ، فصرح بأن الفصاحة ترجع إلى النظم ، وهو الضم على طريقة مخصوصة ، ولا بد أن تراعي في هذا الضم صفات مُعَيَّنة للكلمات سواء كانت مفردة ، أو إذا انضم بعضها إلى بعض ؛ يقول : « واعلم أن

---

(١) ينظر البلاغة تطور وتاريخ : ١١٤ .

(٢) هو أبو الحسين عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمذاني ، الأسد آبادي ، الأصولي ، كان شيخ المعتزلة في عصره ، وهم يلقبونه قاضي القضاة ، ولا يطلقون هذا اللقب على غيره ، تولى قضاء الري . من مصنفاته : تنزيه القرآن عن المطاعن ، شرح الأصول الخمسة ، المغني في أبواب العدل والتوحيد في نحو عشرين جزءاً . توفي بالري عام ٤١٥ هـ.

(٣) ينظر المغني في أبواب العدل والتوحيد : ١٩٨/١٦ طبع وزارة الثقافة والإرشاد - مصر (الطبعة والتاريخ من دون) .

الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام ، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة ، ولا بد مع الضم أن يكون لكل كلمة صفة ، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم ، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه،

وقد تكون بالموقع ، وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع ؛ لأنه إما أن تعتبر فيه الكلمة ، أو حركاتها، أو موقعها ، ولا بد من هذا الاعتبار في كل كلمة ، ثم لا بد من اعتبار مثله في الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض ..... » (١).

إن الفصاحة عنده لا تظهر في الكلمات المفردة ، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة ، حيث ينبغي أن يُراعي ، ويُلاحظ عند الضم ما يلي :

١- ملاحظة إبدال الكلمات ونظائرها ، بحيث تختار منها ما يلائم المعنى الذي سِيقَتْ له .

٢- مُلاحظة الموقع الذي ستقعه الكلمة ، فإن وقوعها فاعلاً غير وقوعها مفعولاً ، أو حالاً ، أو ظرفاً ، والعلم بمواقع الإعراب يساعد على اختيار المهمة التي تؤديها الكلمة في تركيب الجملة التي ترتبط بها .

٣- ملاحظة موقع الكلمة من حيث التقديم والتأخير بحيث توضع في موقعها المناسب لتقوم بأداء مهمتها على أتم وجه وأحسنه (٢).

ويضيف : « .... وهذا يُبين أن المعتبر في المزية ليس بنية اللفظة ،

---

(١) ينظر : المغني في أبواب العدل والتوحيد :١٦/١٩٩ .

(٢) المغني في أبواب العدل والتوحيد : ١٦/٢٠٠ .

وأن المعتبر فيها ما ذكرناه من الوجوه ، فأما حسن النغم ، وعذُوبة القول ، فمما يزيد الكلام حُسناً على السمع لا أنه يوجد فضلاً في الفصاحة » (١).

فالمعتبر عنده في المزية ليس بنية الكلمة ، وإنما هو النظم الذي يضمها ، وما ينبغي أن يُراعى فيه .إن تلك الصفات التي بملاحظتها في الضم والتأليف يرجع فضل الكلام عند عبدالجبار ما هي إلا معاني النحو وأحكامه ، التي بني عليها عبد القاهر نظريته سواء قصدها أو لم يقصدها . يقول الدكتور حسن عبد الرازق : « وأنت تشعر من هذا الكلام أن عبد الجبار يكاد يُعَبِّر عن نظرية النظم التي وجدها عبد القاهر في معاني النحو ، ولكنه وقف دونها ، فلم يصل إليها »(٢) وقد ألمح عبد القاهر نفسه إلى ذلك حين قال مشيراً إلى نص عبد الجبار السابق : « وإلا رأيتهم قد اعترفوا من حيث لم يدروا بأن ليس للمزية التي طلبوها موضع ومكان تكون فيه إلا معاني النحو وأحكامه ، وذلك أنهم قالوا : إن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلمات ، وإنما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة ، وهذا سبيل كل ما قالوه ، إذا أنت تأملته تراهم في الجميع قد دفعوا إلى جعل المزية في معاني النحو وأحكامه من حيث لم يشعروا.....» (٣).

وعليه فإن لعبد الجبار فضل السبق والتقدمة في الكشف عنها ، وكان يمكن أن يكون هو رائد هذه النظرية غير مُدافع لو انه تابع فكرته ، وأكثر من التطبيق عليها ، والشرح لها ، لولا أنه شُغل بقضايا مذهبه الكلامية ،

---

(١) المرجع السابق .

(٢) دلائل الإعجاز بين أبي سعيد السيرافي وعبد القاهر الجرجاني د . إسماعيل عبد الرازق : ٥١ دار الطباعة المحمدية – القاهرة – الطبعة الأولى .

(٣) ينظر دلائل الإعجاز : ٢٨٢ .

والجدل الفلسفي (١).

عبد القاهر رائد النظرية :

استطاع عبد القاهر بفضل تبحره في علم النحو أن يشرح فكرة النظم التي كانت سائدة في بيئة المعتزلة والأشاعرة(٢) كما استطاع بذوقه الأدبي المرهف ، وحسه الصادق ، وملكته الأصيلة أن يفيد مما كتبه أولئك الأعلام عن النظم مقرراً أن المزية والبلاغة والفصاحة لا ترجع إلى اللفظ وحده ، ولا إلى المعنى وحده ، ولكن إلى شيء آخر وراءهما وهو النظم، يقول في ذلك : « وهل تجد أحداً يقول :هذه اللفظة فصيحة إلا ويعتبر مكانها من النظم ، وحسن ملائمة معناها لمعنى جاراتها ، وفضل مؤانستها لأخواتها ..... هل تشك إذا فكرت في قوله تعالى ﴿ **وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾(٣) .

فتجلّى لك منها الإعجاز ، وبهرك الذي ترى ، وتسمع أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة ، والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلمة بعضها ببعض ، وإن لم يعرض لها الحسن ، والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية ، والثالثة بالرابعة ؟ وهكذا إلى أن تستقر بها إلى آخرها ....» (٤).

---

(١) ينظر :بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار وأثره في الدراسات البلاغية د.عبد الفتاح لاشين:٤٦٩ – ٤٧٨ – دار الفكر العربي – القاهرة – الطبعة الأولى سنة ١٩٧٦م .

(٢) ينظر : عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده د . أحمد مطلوب : ٤٠ – ٦٥ .

(٣) هود : آية (٤٤).

(٤) دلائل الإعجاز : ٩١.

وأخذ في توضيح فكرة النظم في الآية إلى أن قال :

« فقد اتضح إذن اتضاحا لا يدع للشك مجالاً أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هي كلم مفردة ، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة ، وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها ، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ » [١].إن فكرة النظم عنده قائمة على اتحاد أجزاء الكلام ، وترابط معانيه ، وتعلُّق الكلم بعضه ببعض ، فلا نظم، ولا ترتيب حتى يُعلّق بعض الكلم ببعض ، ويبني بعضه على بعض ، فتجعل هذه بسبب من تلك[٢]....

ونظم الكلم عنده يختلف عن نظم الحروف، فليس هو توالي الألفاظ في النطق كما في نظم الحروف ، بل هو تناسق دلالتها ، وتلاقي معانيها على الوجه الذي يقتضيه العقل ، لأنه نظم يُعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض ، وهو نظير النسج والصياغة والبناء ، بحيث تُرتّب المعاني ، والخواطر التي يُراد التعبير عنها في النفس أولاً ، ثم يبنى الكلم ، وينظم ، ويؤلّف بحيث يتفق مع ما ترتب في النفس [٣].يقول « ..... وأنك تتوخّى الترتيب في المعاني ، وتعمل الفكر هناك ، فإذا تمَّ لك ذلك أتبعتها الألفاظ ، وقفوت بها آثارها ، وأنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج إلى أن تستأنف فكرا في ترتيب الألفاظ ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني ، وتابعة لها ، ولاحقة بها » [٤].ومجمل النظم

---

(١) دلائل الإعجاز :٩٢.

(٢) المصدر السابق : ٩٤-٩٧.

(٣) ينظر : المصدر السابق ٩٤-٩٧.

(٤) ينظر : المصدر السابق ٩٧.

عنده أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه ، وأصوله ، وتعرف مناهجه ، فلا تزيغ عنها ، ولا تخل بشيء منها [١]. أما المراد بعلم النحو الذي ينبغي على الناظم أن يضع كلامه الوضع الذي يقتضيه فهو النظر " في وجوه كل باب ، وفروقه ، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك زيد منطلق ، وزيد هو المنطلق ، وينطلق زيد ، وزيد المنطلق ، والمنطلق زيد ، وزيد هو المنطلق ، وزيد هو منطلق ، وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك : إن تخرج أخرج ، وإن خرجت خرجت ، وإن تخرج فأنا خارج ، وأنا خارج إن خرجت ، وأنا إن خرجت خارج ، فتعرف لكل من ذلك موضعه ، وتجيء به حيث ينبغي له ، وتنظر إلى الحروف التي تشترك في معنى ، ثم ينفرد كل واحدٍ منها بخصوصية ، فتضع كلاًّ منها في خاصّ معناه»[٢].

وهو العلاقات بين المفردات ، والجمل ، وما يكمن وراءها من مزايا ، وأسرار بلاغته ينبغي على الناظم أن يلتفت إليها،فيرتب كلامه بعد توخّيها حسب ما ترتب من المعاني في نفسه .

هذا هو الأصل الذي دارت حوله دراسة الجرجاني في دلائل الإعجاز مُحَاولاً إثباته وبيانه ، ومؤكداً رجوع المزية إليه مستشهداً له بكل ما وعاه من الشواهد ، وكانت دراسة الفصل والوصل ، والتقديم والتأخير ، والحذف والذكر، والتكرار، والإضمار فرعا تفرعت من هذا الأصل[٣]. وكذلك كانت دراسة الاستعارة، والكناية، وضروب المجاز، فقد حاول أن يربطها

---

(١) ينظر المصدر السابق :١١٧.

(٢) دلائل الإعجاز ١١٧.

(٣) المصدر السابق ١١٧.

بالنظم، مبيناً أنها عنه تحدث، وبه تكون[١]. وبذلك كان عبد القاهر الجرجاني بحق رائد هذه النظرية بلا منازع ، لا لأنه ابتكرها ،ولا لأنه ردّ البلاغة إليها ، وفسّر بها الإعجاز ؛ لأن في هذا القول نسفاً لجهود السابقين، وإنما لأنه استطاع أن يقيم من تلك الفكرة نظرية أدبية لها مكانتها السامية في دنيا البلاغة والنقد ، إذ درسها بإحاطةٍ وعمق ، وأطال في تحليلها ، والتدليل عليها بما مَكَّنَها من الرسوخ ، وجعلها بناءً مستقلاً بعد أن كانت لَبِنَاتٍ مُتَناثِرة عند السابقين[٢] فقد كانت بذور النظم موجودة عند الجاحظ ، وقد صرّح . بالنقل عنه كثيرا مما يدلّ على تأثيره به[٣]. ومحور كلامه عن المزية، والفصاحة ، وأنها لا ترجع إلى اللفظ وحده ، ولا إلى المعنى وحده ما هو إلا ترديد لكلام عبد الجبار في الفصاحة ، وقد استطاع أن يوضح بدقة ما عناه عبد الجبار بالضم على طريقة مخصوصة ، مهملا التصريح باسمه ، ملمحاً إليه في معرض الاتهام ، والعتاب ، والتقصير[٤]. كما أن أسس فكرته عن النظم بشقيها : التركيب الأدبي ، والتأثير النفسي موجودة عند الخطّابي[٥] ومفهوم معاني النحو الذي تردد كثيراً في دلائله ، كان شائعا منذ القرن الرابع ...منذ مناظرة أبي سعيد السيرافي النحوي ، ومَتَّى بن يونس المنطقي ، إذ المقارنة بين نص تلك المناظرة ، وما كتبه عبد القاهر تُظهر مدى استيعابه لما جاء فيها ، ومما جاء فيها قول أبي

---

(١) المصدر السابق ٣٥٨.

(٢) ينظر : خطوات التفسير البياني ، د.محمد رجب البيومي (مجمع البحوث الإسلامية ص: القاهرة).

(٣) ينظر دلائل الإعجاز ٩٨ وما بعدها .

(٤) ينظر : دلائل الإعجاز ٦٨.

(٥) المعاني علم الأسلوب ، د.مصطفى الصاوي الجويتي :٦٩.

سعيد : « معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها ، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير ، وتوخي الصواب في ذلك ، وتجنب الخطأ.....» (١).

الأمر الذي دعا بعض الباحثين المعاصرين إلى الجزم بأن (دلائل الإعجاز) ليس إلا شرحاً لمتن تلك المناظرة (٢).

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ، أبو حيان التوحيدي ١٢١/١.

(٢) ينظر دلائل الإعجاز بين أبي سعيد السيرافي وعبد القاهر الجرجاني) د. حسن عبد الرازق /؛.

المبحث الثاني
النظم في ميدان التطبيق

النظم عند الزمخشري

تَبَنَّى الزمخشري نظرية النظم بعد عبد القاهر ، وكان عالماً أدبياً ذوّاقة لطعوم الكلام ، فاستطاع بفهمه الدقيق ، وَحِسِّه البليغ ، أن يستوعب كل ما كتبه عبد القاهر عن النظم ، وليس ذلك فحسب ، وإنما فسّر القرآن على ضوء هذه النظرية ، وردّ إعجاز القرآن إليها ، فكان بعمله هذا أوّل من طبّق رأيه في إعجاز القرآن تطبيقاً عملياً ، وعلى نطاق واسع شمل القرآن كله(١) .

وقد أشار إلى النظم في أكثر من موضع من (الكشاف) ، ومن خلال تتبع كلمة النظم فيه ، يتضح أن النظم عنده ما يُعني ببيان الروابط ، والعلاقات بين الجمل ، وشدة ارتباطها ببعضها ، وأنه العلم الذي يبحث عما وراء الصناعة النحوية من أسرار ، ويكشف الفروق الدقيقة بين التراكيب ، ويربطها بالسياق ، والغرض العام (٢)يقول في قوله تعالى: ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ (٣).فإن قلت ما السبب في عطف هذه الآية بالفاء ،. وعطف مثلها في أول السورة بالوا و؟

---

(١) ينظر منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه د. الصاوي الجويني ٢١٩، بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار : ٦٥٤.

(٢) ينظر : البلاغة تطور وتاريخ د. شوقي ضيف : ٢١٩ -٢٤٣، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية د. محمد محمد أبو ٢٣٥-٢٤٨.موسى

(٣) الزمر : الآيتان(. ٤٨-٤)

قلت : السبب في ذلك أن هذه وقعت مسبّبة عن قوله تعالى ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ﴾ على معنى أنهم يشمئزون عند ذكر الله ، ويستبشرون بذكر الآلهة ، فإذا مسّ أحدهم ضر دعا من اشمأز من ذكره دون من استبشر بذكره وما بينهما من الآي : اعتراض. فإن قلت حق الاعتراض أن يؤكد المعترض بينه وبينه ؟ قلت ما في الاعتراض من دعاء رسول الله ﷺ ربه بأمر منه وقوله ﴿ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ ﴾[1].ثم ما عقبه من الوعيد العظيم تأكيد لإنكار اشمئزازهم ، واستبشارهم ، ورجوعهم إلى الله في الشدائد دون آلهتهم .....» ومضى يبين أسرار الآية ، ثم قال :« وهذه الأسرار والنكت لا يبرزها إلا علم النظم ، وإلا بقيت محتجبة في أكمامها »[2] .وتلقانا عنايته بهذا العلم – الذي تمخضت عنه مباحث علم المعاني – وتطبيقه لقواعده في جوانب كثيرة من صفحات تفسيره ، ومن ذلك في تفسيره لقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[3].

فقد أطال في بيان تعلق العبارات بعضها ببعض من الوجهة النحوية الخالصة ، ملاحظاً أثناء ذلك بعضا من أسرار النظم التي تحدث عنها عبد القاهر ، منها التعريف باللام في قوله تعالى﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ وأنه أفاد حصر جنس الكمال في هذا الكتاب ، يقول « ومعناه أن ذلك الكتاب هو الكتاب الكامل . كأن ما عداه من الكتب في مقابلته ناقص ، وانه هو الذي

---

(١) يشير إلى قوله تعالى على لسان نبيه موسى ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾.

(٢) الكشاف للزمخشري ٤٠٣/٣.

(٣) البقرة الآيتان (١-٢).

يستأهل أن يسمى كتاباً كما تقول : هو الرجل ، أي الكامل في الرجولية .....» [١]. كما وقف عند نفي الريب على سبيل الاستغراق ، وكم من مرتاب فيه ؟ قلت : ما نفى أن أحدا لا يرتاب فيه ، وإنما المنفي كونه متعلقاً للريب ، ومظنة له ، لأنه من وضوح الدلالة ، وسطوع البرهان بحيث لا ينبغي لمرتاب أن يقع فيه .....» [٢].ويقول : إن تقديم الريب على الجار والمجرور يفيد أن القرآن حق لا باطل وكذب كما كان يزعم المشركون ولو تأخر لأفاد غير المراد ، ويصوّر ذلك بقوله تعالى في وصف خمور الجنة ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾[٣].

يقول : فإن قلت : فهلا قدم الظرف على الريب كما قُدم على الغول في قوله تعالى﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ قلت : لأن القصد في إيلاء الريب حرف النفي ، نفي الريب عنه ، وإثبات أنه حق وصدق ، لا باطل وكذب كما كان المشركون يدّعون ، ولو أولى الظرف لقصد على ما يبعد عنه المراد ، وهو أن كتابا آخر فيه الريب لا فيه ، كما قصد في قوله : ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا بأنها لا تغتال العقول كما تغتالها هي ، كأنه قيل : ليس فيها ما في غيرها من هذا العيب والنقيصة »[٤].ثم يتساءل : لم قيل ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾والمتقون مهتدون ؟ ويجيب بأن ــ ذلك كما تقول للعزيز المكرم : أعزك الله ، وأكرمك تريد طلب الزيادة إلى ما هو ثابت

---

(١) الكشاف ١/١١١.

(٢) الكشاف ١/١١٤.

(٣) الصافات آية ٤٧.

(٤) الكشاف ١/١١٤-١١٥.

فيه ، وأنه سّماهم متقين لمشارفتهم الاكتساء بلباس التقوى"[١].ثم لا يلبث أن يقول : « والذي هو أرسخ في البلاغة عرْقا أن يُضرب عن هذه المحال النحوية صفحا ، وأن يقال :إن قوله ﴿ ألـــم﴾ جملة برأسها ، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها ، و﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ جملة ثانية ، و﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ثالثة، و﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ رابعة ، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة، وموجب حسن النظم ، حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق ، وذلك لمجيئها متآخيه ، أخذا بعضها بعنق بعض ، فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها ، وهلم جرا إلى الثالثة والرابعة ، بيان ذلك أنه نبّه أولاً على أنه الكلام المتحدّى به ، ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال ، فكان تقريراً لجهة التحدي وشدا من أعضاده ثم نفى عنه أن يتشبث به طرف من الريب ، فكان شهادة ، وتسجيلا بكماله ؛ لأنه لا كمال أكمل مما للحق ، واليقين ، ولا نقص أنقص مما للباطل، والشبهة .....ثم أخبر عنه بأنه ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ فقرر بذلك كونه يقينا لا يحوم الشك حوله ، وحقا لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، ثم لم تخل كل واحدة من الأربع بعد أن رُتبت هذا الترتيب الأنيق ، ونُظمت هذا النظم السري من نكته ذات جزالة ، ففي الأولى الحذف ، والرمز إلى الغرض بألطف وجه ، وأرشقه ، وفي الثانية ما في التعريف من الفخامة ، وفي الثالثة ما في تقديم الريب على الظرف ، والرابعة الحذف ، ووضع المصدر الذي هو هدى موضع الوصف الذي هو هاد ، وإيراده منكرا ،والإيجاز في ذكر المتقين »[٢] .في هذه القطعة كما نرى تصوير واضح لطريقة الزمخشري في تفسير القرآن ،

---

(١) الكشاف ١٢٢/١.

(٢) الكشاف ١٢٢/١.

وعنايته بيان الروابط ، والعلاقات بين الجمل، وشدة ارتباطها ببعض في النظم ، لأنه نظر إلى تآخي العبارات في الآيتين السابقتين ، وتعانقها لما بينهما من شدة الاتصال ، وأن هذا الاتصال بينها هو السر في ترك وصلها بحرفٍ من حروف العطف ، وفي هذا تطبيق دقيق لما عناه عبد القاهر في دراسته لجانب من جوانب الوصل والفصل .

ولما كشف هذا الكشف الدقيق عن تناسق الجمل السابقة ذكر أنها مع هذا التناسق لم تكن تخلو من لطائف وأسرار ، ففي (ألم) إيجاز ، وفي الثانية (ذلك الكتاب) التعريف الذي أفاد الحصر ، أما الثالثة (لا ريب فيه) ففيها تقديم الريب على الظرف الذي دلّ على نفي الريب عن الكتاب نفيا مستغرقاً من غير تعرض لوجود ريب في غيره ، وفي الرابعة (هدى للمتقين) الإيجاز ، ووضع المصدر موضع الوصف ، وإيراده منكراً لأن الأصل هدى للصائرين إليه بعد الضلال ..... (١)

وعلى هذا النحو يسير الزمخشري في تفسير الآيات ملاحظا بوعي كامل ، ووضوح تام بيان تعلق الكلام بعضه ببعض ، تعلقا يكشف في ثناياه عن جميع وجوه النظم التي تحدث عنها عبد القاهر في دلائل الإعجاز ، والتي تمخضت عنها مباحث علم المعاني فيما بعد ، وهي المباحث البلاغية المتصلة بالجملة ، وما يحدث فيها من تقديم ، وتأخير ، أو حذف وذكر، أو تعريف وتنكير، أو قصر، أو فصل ووصل(٢).

---

(١) ينظر : البلاغية القرآنية في تفسير الزمخشري : ٤٣٣-٤٣٤.

(٢) ينظر مصطلحات بلاغية ، د. أحمد مطلوب : ٥٣ المجمع العلمي العراقي : بغداد ، الطبعة الأولى ١٣٩٢ هـ.

فاستفاد من حديثه عن التقديم والتأخير ، والحذف والذكر ، التعريف ، والتنكير ، والخبر ، والإنشاء ، والأغراض البلاغية التي يخرجان إليها ، وعن الفصل والوصل ، والحروف المستعملة لذلك ، والفروق فيما بينها ، كما استفاد من حديثه عن أسلوب القصر وأدواته ، والإطناب ومن مباحثه في علم البيان : وهي الكناية ، والاستعارة والتشبيه والمجاز [١] ومضى كما يقول الدكتور شوقي ضيف يُطبِّق جميع ذلك تطبيقاً دقيقاً ، « وكأنه لم يترك صغيرة ولا كبيرة من آراء عبد القاهر إلا ساق عليها الأمثلة النيرة من القرآن الكريم »[٢].

والذي يدلنا على اهتمام الزمخشري بهذا الجانب في تفسيره أنه لم يقدم لنا تفسيرا كاملاً للقرآن الكريم ، بل كان معنيا بتفسير ما يسترعيه من إعجاز في الآية ، وما يستوفيه من دقائق نظمها .

النظم بعد الزمخشري :

لقد كان لتطبيقات الزمخشري للأصول البلاغية التي قرّرها عبد القاهر ، فضل عظيم على عبد القاهر نفسه ؛ من حيث إنها أتاحت لأصوله قوة ، ومكانه ، وأظهرت قدرتها على تحديد المزايا البلاغية لأسلوب القرآن في صورة دقيقة [٣].

وعلى الرغم من ذلك لا نجد في الميدان البلاغي بعد الزمخشري من يُعد امتداداً لاتجاهه التطبيقي في درس البلاغة ، ولم ينهض العلماء بعده بطريقته في دراسة الإعجاز البياني للقرآن بل توارث نظرية النظم في

---

(١) ينظر : البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري /١٢٣-١٩٤ د. محمد محمد أبو موسى

(٢) ينظر : البلاغة تطور وتاريخ د. شوقي ضيف .

(٣) ينظر : البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري .د. محمد محمد أبو موسى : ٣٧.

فيض الشروح ، والمختصرات ، والحواشي على متن (مفتاح العلوم) للساكي الذي سيطر على الدراسة البلاغية في المشرق آنذاك (١).

هذا في المشرق الإسلامي أما في المغرب ، فقد ظهر عالم مغربي أندلسي ، من الممكن اعتبار منهجه في دراسة النظم القرآني امتداداً لطريقة الزمخشري ، وإن كانت على نطاق ضيق جداً ، لأن موضوع الكتاب لم يكن تفسيرا للقرآن كما كان عند الزمخشري ، وإنما كان عرضاً لمسائل نحوية بطريقة سائغة عذبة ، الهدف منها الكشف عن أسرار هذه اللغة الشريفة ، التي نصل إلى ما أودعه الله في كتابه من الفوائد واللطائف ، ولكنه إذا عرض للبلاغة عرض لها بقوة، ووضوح ، ذلك العالم هو : أبو القاسم عبد الرحمن ابن عبد الله بن أحمد السهيليّ.

وقد اشتهر السهيلي الذي عاش في الأندلس في وقت شهدت فيه نشاطاً ، وازدهاراً علمياً لغوياً لم تشهد مثله من قبل بالنحو حتى طغت شهرته به على الوجه الآخر لشخصيته ، وهو الوجه البلاغي وذاع صيته بالنحو على الرغم من أن غرضه من تأليف الكتاب كما قال في مقدمته ، هو البحث عما وراء الصناعة النحوية من آراء ، ولطائف ، وخاصة في النظم القرآني ، وليس للنحو من حيث هو نحو (٢).

وعنوان الكتاب نفسه يوحي بأن السهيلي قد أطلق لفكره العنان ، ليتأمل ما خلف معاني النحو من أسرار ، وليكشف عن معنى النظم أستار ؟

وهذه حقيقة ينبغي لدارسي البلاغة أن يلتفتوا إليها ، فيكشفوا النقاب عن جهد السهيلي في هذا الجانب، وذلك بدراسة الوجه الآخر لشخصيته .

---

(١) ينظر : البلاغة للسكاكي ، د. أحمد مطلوب : ٣٤٢-٣٤٩.

(٢) ينظر : نتائج الفكر في النحو : ٣٤ تحقيق د. محمد إبراهيم البنا سنة ١٩٨٤م.

النظم عند السهيلي :

لقد آثار السهيلي في أكثر من موضع بأن إعجاز القرآن في نظمه ، مثال ذلك قوله : «..... فكان الابتداء ب(كل) أحصن للمعنى ، وأجمع للجنس ، وأرفع للبس ، وأبدع في النظم المعجز لذوي الألباب »(١).

ومثله قوله : « ولكن الكلام الإلهي ، والنظم المعجز الخارق للعادات يقتضي حكمة ، ومزيد فائدة ...» (٢).

ويرى أنه كشف عن بلاغة معنى من معاني النحو في نسق الآية ، قد كشف عن وجهٍ من وجوه الإعجاز في نظمها . يقول عن سر مجيء (اسم) في قوله تعالى ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾(٣) .وقوله : ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ ﴾ (٤).

بأن المقصود بالذكر ، والتسبيح هو الرب تبارك وتعالى ، لا اللفظ الدال عليه ، ولكن جيء ب(اسم) لفائدة لطيفة ، وهي : أن الذكر والتسبيح يكون بالقلب ، ويكون باللسان ، ولو أطلقا دون ذكر الاسم لما فهما منها ذلك ، والله عز وجل تعبدنا بالأمرين جميعا ، فجيء بالاسم ؛ تنبيها على هذا المعنى ، فصار معنى الآيتين : اذكر ربك ، وسبح ربك بقلبك ولسانك، ثم يعلق بقوله : «.... فقد وضحت تلك الحكمة التي من أجلها أقحم ذكر الاسم ، وأنه به كملت الفائدة ، وظهر الإعجاز في النظم ، والبلاغة في

---

(١) ينظر : نتائج الفكر : ٢٧٨.

(٢) المصدر السابق :١١٧.

(٣) الأعلى : آية ١.

(٤) المزمل آية ٨.

الخطاب فهذه نكته لمتدبرها خير من الدنيا بحذافيرها .....» [١].

وهذا المثال من الأمثلة التي توضح لنا اتجاه السهيلي في دراسة الإعجاز البياني للقرآن ، وأنه لم يخرج عن نطاق فكرة النظم التي قررها عبد القاهر ، وطبقها الزمخشري ، وأوضح منه دراسته لدقائق النظم في قوله تعالى ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾[٢] .

من أسرار النظم في آيتي الفاتحة :

ساق السهيلي هاتين الآيتين على أنهما من شواهد الزجّاجي على البدل، ثم وقف عندها وقفة متأنية ، وكشف عن فوائد جليلة تتصل بنظمها . ومن هذه الفوائد :

١- فائدة البدل في الدعاء ، وهي استشعار الداعي ما يجب عليه اعتقاده من خلاف اعتقاد أهل الباطل ، وأنهم على الحق ، وعلى الصراط المستقيم .

٢- فائدة تعريف الصراط بالألف والام ، وهي إفادة معنى الحصر ، وأنه الإسلام لا غيره ، ثم تعريفه بإضافته إلى اسم الموصول المبهم ، وما في ذلك من معنى العموم ، واستشعار أن من هدي إلى الصراط فقد أنعم عليه ، فيسأل السائل بوعي دون تقليد .

٣- فائدة التعبير بالصلة : ﴿ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ دون « المنعم عليهم وما في ذلك من معاني : الشكر ، والذكر ، والثناء معاً .

---

(١) نتائج الفكر : ٤٥.

(٢) الآيتان (٦-٧).

٤- اختصاص كل من اليهود والنصارى بالمغضوب عليهم ، والضالين ، وكل منهما مغضوب عليه وضال ، وذلك لما غلب على اليهود أنهم « أمة غضبية » استحقت ما يوجب لها هذا الوصف ، في حين غلب على النصارى الضلال .

٥- فائدة تقديم « المغضوب عليهم » على « الضالين » وبناء الأول على « المفعولين » ، والثاني على (الفاعلين) ؛ لأن الغضب خارج عن فعلهم ، صادر من الله ، ولفظه مشعر بمشاركة جميع المؤمنين الله في الغضب عليهم ، بعكس الضالين الذين اكتسبوا الضلال ، وضلوا بأنفسهم ، فجاء وصفهم على فاعلين حتى لا يُشعر اللفظ بالاعتذار لهم .

٦- فائدة العطف ب(لا) دون الاكتفاء بالواو في قوله ﴿ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ وما فيه من تأكيد النفي .

وأسوق كلامه بالنص ليقف القارئ على قدرة السهيلي العظيمة على استكناه أسرار النظم القرآني .

يقول – بعد أن ساق آيتي الفاتحة – : « ما فائدة البدل في الدعاء ، والداعي مخاطب لمن لا يحتاج إلى البيان ... ومنها أن يُقال : ما فائدة تعريف الصراط المستقيم بالألف واللام ، وهل أخبر بمجرد اللفظ دونهما ، كما قال : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[1] ،وكما قال : ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [2]ومنها أن يقال : ما معنى الصراط ؟ ولما ذكر في سورة الأحقاف بلفظ الطريق ، فقال : ﴿ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ

---

(١) الشورى آية : ٥٢ .

(٢) الفتح آية : ٢ .

مُسْتَقِيمٍ﴾ [١]،ومنها أن يقال : ما الحكمة في إضافته إلى ﴿ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ بهذا اللفظ ، ولم يقل النبيين ، ولا الصالحين ، وجاء باللفظ مبهماً غير مفسر ؟ .

ومنها أن يقال : لما عبر عنه بلفظ (الَّذينَ) موصولة بصلتها ، وكان أوجز ، واخصر أن يقال : المنعم عليهم ... ومنها أن يقال لم وصفهم بـ « غير » وقد كان الظاهر أن يقول ههنا : لا المغضوب عليهم ..... [٢] وعلى هذا النحو يكمل طرح تساؤلاته ، ثم يبدأ في الإجابة عنها واحداً واحداً .

أما فائدة البدل في الدعاء : أي إبدال صراط الذين أنعمت عليهم من الصراط الأولى : فلأن « الآية وردت في معرض التعليم للعباد الدعاء ، وحق الداعي أن يستشعر عند دعائه ما يجب عليه اعتقاده مما لا يتم الإيمان إلا به ... فمن ثم جاء لفظ الطلب للهداية ، ولفظ الرغبة مشوباً بالخير ، تصريحاً من الداعي بمعتقده ، وتوسلاً من الداعي بذلك المعتقد إلى ربه ، فإذا قال: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ والمخالفون للحق يزعمون أنهم على الصراط المستقيم أيضاً ، والداعي يجب عليه اعتقاد خلافهم ، وغظهار الحق الذي في نفسه ، أبدل وبُين ، ليمرن اللسان على ما اعتقد ..... » [٣].

وأما تعريف الصراط بالألف واللام فلأن الألف واللام إذا دخلت على اسم موصوف اقتضت أنه أحق بتلك الصفة » وهو يشير إلى إفادة اللام

---

(١) الأحقاف آية : ٣٠ .

(٢) نتائج الفكر : ٣٠٠ - ٣٠١ .

(٣) المصدر السابق : ٣٠١ .

معنى الحصر ، ويوضحه قائلاً : « ألا ترى أن قولك : جالس فقيهاً أو عالماً ، ليس كقولك : جالس الفقيه أو العالم ؟ ولا أكلت طيباً ، كقولك : أكلت الطيب ..... » (١).

وبهذا فإنه لو قال (صراطاً مستقيماً) فكأنه يطلب الهداية إلى صراط ما على الإطلاق ، والمطلوب هو الهداية إلى الصراط المعلوم لديه ، وهو الإسلام .

ثم يورد اعتراضاً ؛ فيقول : « فإن قيل : فقد قال لنبيه - ﷺ - : ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ وقد كان على الصراط الأقوم ، فضلاً عن صراط مستقيم على الإطلاق ؟ » (٢).

والجواب عنده مرتبط بالجو الذي نزلت فيه الآية ، حيث إن الآية نزلت في صلح الحديبية الذي كرهه المسلمون ، ورأوا أن الرأي خلافه ، ولكن رسول الله أعلم ، وفي هذا المقام لا يمكن أن يكون الصراط المستقيم هو الإسلام ، وإنما الرأي والحرب والمكيدة (٣).

وأما اشتقاق (الصراط) فمن سرطت الشيء أسرطه إذا بلعته بلعاً سهلاً ، فهو الطريق السهل القويم ....

وأما ذكره بلفظ (الطريق) في سورة الأحقاف خاصة ، فلأنه انتظم بقوله سبحانه ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴾(٤) وإنما أراد انه سبيل مطروق قد مرت عليه الرسل قبله ، وأنه ليس ببدع ، كما قال في السورة

---

(١) نتائج الفكر : ٣٠٢ .

(٢) المصدر السابق: ٣٠٣ .

(٣) المصدر السابق : ٣٠٣ .

(٤) الأحقاف آية : ٣٠ .

نفسها ، فاقتضت البلاغة والإعجاز لفظ (الطريق) لأنه فعيل بمعنى مفعول أي مطروق مشت عليه الرسل ، والأنبياء قبل ، وليس في المواضع الأخر ما يقتضي هذا المعنى ..... »[١] .

وأما إضافته إلى الصلة دون صراط النبيين والصالحين فلفائدتين :

الأولى : استشعاراً أن من هُدي إلى هذا الصراط فقد أنعم عليه ، ولو ذكرهم بأعيانهم لم يكن فيه هذا المعنى .

والثانية : قصد العموم لأن الآية عامة في طبقات المسلمين مسيئهم ، وصالحهم ولفظ:﴿ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ يشمل الجميع .

وكذا التعبير بالصلة في قوله ﴿ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ دون الاسم (المنعم عليهم) وهذا لما فيه من الذكر والشكر معاً فإذا قلت : (أنعمت) أبرزت ضمير الفاعل العائد على الله كان فيه ذكر باللسان والقلب معاً ، أما إذا قلت المنعم عليهم فإن اللفظ سيخلو من هذه الفوائد المقرونة بالدعاء ، ويستطرد منه إلى نظائره ؛ فيقول : « ألا ترى إلى قول إبراهيم - عليه السلام - ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾[٢] فأضاف الفعل إلى ربه ، ثم قال : ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[٣] ولم يقل : (أمرضني) كما قال : (يطعمني) إذ ليس في قولك : أمرضني إلا الإخبار المجرد عن الشكر والثناء ، وربما اقترن به تسخط وتضجر ، فعدل عنه إلى قوله (مرضت) ولذلك قال سبحانه : ﴿ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ ولم يقل : (الذين غضبت

---

(١) نتائج الفكر : ٣٠٣ .

(٢) الشعراء آية : ٧٩ .

(٣) الشعراء آية : ٨٠ .

عليهم)[١].ولفائدة أخرى ، وهي أن العبد يشارك الله في الغضب عليهم ؛ لأنه إذا قيل المغضوب عليهم استشعر جميع المؤمنين الغضب عليهم بعكس ما لو قيل : (غضبت عليهم) .

ويعود إلى فائدة التعبير بالصلة في الآية ، ويضيف ان من فوائدها أيضاً الإشارة إلى تعريفهم بأعيانهم ، وتعرفهم من الدين ، ولاسيما النبيين بخلاف من غضب الله عليهم ، فوجب الإعراض عنهم ، فاقتصر على الصفة المذمومة دون أن يُعينُوا بالذين .

وأما وصفهم (بغير) ففائدته أن اليهود والنصارى يدّعون أن الله تعالى أنعم عليهم بالكتابين ، وأنهم على الصراط المستقيم ، فبين سبحانه أنّ الذين أنعم عليهم هم غير المغضوب عليهم ، وكذلك الضالين ، ولأن « لا » تعطي للعطف بعدها إيجاب فلما جاء « بغير» وهم اسم يُنعت بها ، زاد في الكلام فائدة الوصف ، والثناء للذين أنعم عليهم [٢].

وأما استحقاق اليهود لهذا الاسم فلنزول غضب الله بهم في الدنيا ؛ فقد قال الله فيهم : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ [٣]. فمن حيث أخبر عنهم أنهم باءوا بغضب سماهم المغضوب عليهم .

وأما تقديمهم على الضالين فلأنهم متقدمون بالمرتبة والمكان ، حيث كانوا مجاوري رسول الله - ﷺ - والمخاطبين بالآية ، وأقرب إليهم ذكراً من النصارى .

وذكر الضالين بلفظ فاعلين ، لئلا يكون كالغدر بهم ، وإنما ينبغي أن

---

(١) نتائج الفكر : ٣٠٥ .

(٢) ينظر المصدر السابق : ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

(٣) البقرة : آية (٦١) .

يخبر عنهم باكتسابهم ضلالهم ، لا بإضلال الله إياهم [١].

وأما فائدة العطف بـــــ (لا) مع الواو ، فلتأكيد النفي الذي تضمنه غير ، إذ لولا ما فيها من معنى النفي لما عطف بـــــ (لا) مع الواو ــ وفائدة هذا التوكيد أن لا يتوهم أن الضالين داخل في حكم المغضوب عليهم ، أو وصف لهم ، ألا ترى أنك إذا قلت : « ما مررت بزيد ولا عمــرو » علم أنك تنفي الفعل عنهما جميعاً ، على كل حال من اجتماع وافتراق [٢].

هذا هو نص السهيلي أضعه بين يدي القارئ ــ بعد تصرف بسيط ــ لأبين أن نتائج السهيلي هي الامتداد الطبيعي لكشاف الزمخشري ، وإن كان الأول مغربياً ، والثاني مشرقياً .

---

(١) ينظر : نتائج الفكر : ٣٠٦ .

(٢) نتائج الفكر : ٣٠٦ .

فهرس المصادر والمراجع

١ أثر القرآن في تطور النقد العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري : د. محمد زغلول سلام - مكتبة الشباب – مصر – الطبعة الأولى – التاريخ (من دون) .

٢ إعجاز القرآن : الإعجاز في دراسات السابقين – دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها :عبد الكريم الخطيب – دار الفكر العربي – القاهرة – الطبعة الأولى ١٩٧٤م.

٣ إعجاز القرآن : القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني – عالم الكتب – بيروت – الطبعة الأولى – ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

٤ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : مصطفى صادق الرافعي – دار الكتاب العربي – بيروت – الطبعة الثامنة – ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .

٥ إنباء الرواة عن أنباء الرواة : على القفطي – تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم – الهيئة المصرية العامة – مصر – الطبعة الثانية ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

٦ البان والتبيين للجاحظ : تحقيق وشرح د. عبد السلام محمد هارون – بيروت – دار الجيل – دار الفكر .

٧ البداية والنهاية : ابن كثير – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الثانية (من دون تاريخ) .

٨ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : جلال الدين السيوطي – تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم – المكتبة العصرية – بيروت .

٩ بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار وأثره في الدراسات

البلاغية : د . عبد الفتاح لاشين – دار الفكر العربي – الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م .

١٠ البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري : د. محمد محمد أبو موسى – مكتبة وهبة – القاهرة – الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

١١ البلاغة تطور وتاريخ : د. شوقي ضيف – دار المعارف – القاهرة – الطبقة السادسة .

١٢ تاريخ بغداد : الخطيب البغدادي – دار الكتب العربي – بيروت .

١٣ التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة حتى نهاية القرن السادس الهجري : د. وليد القصاب – دار الثقافة – الدوحة .

١٤ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : تحقيق د. محمد خلف الله أحمد ، د. محمد زغلول سلام – دار المعارف – القاهرة – الطبعة الرابعة .

١٥ الحيوان : للجاحظ – تحقيق وشرح : عبد السلام هارون – دار الجيل – دار الفكر .

١٦ خطوات التفسير البياني : د. محمد رجب البيومي – مجمع البحوث الإسلامية – القاهرة

١٧ دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني – تحقيق د. محمد رضوان الداية ، د. فايز الداية – مكتبة سعد الدين – دمشق – الطبعة الثانية ١٩٨٧م .

١٨ سر الفصاحة : ابن سنان الخفاجي – دار الكتب العلمية – الطبعة الأولى ١٩٨٢م .

١٩ شذرات الذهب في أخبار من ذهب : ابن العماد الحنبلي – دار

المسيرة – بيروت – الطبعة الثانية – ١٩٧٩م .

٢٠ عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده : د. أحمد مطلوب – وكالة المطبوعات – الكويت – الطبعة الأولى ١٩٧٣م .

٢١ فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم : د. فتحي أحمد عامر – منشأة المعارف الإسكندرية .

٢٢ مصطلحات بلاغية : د . أحمد مطلوب – مطبعة العاني – بغداد – الطبعة الأولى .